مجلة المجلات

الهجرة الهندية في السنة ١٩٢٠ – حول نشأة المقامات

الهجرة الهندية في السنة ١٩٢٠

ما هي العلاقات بين المسلمين ومواطنيهم من الهنود في موقفهم تجاه الحكومة البريطانية ؟ تواردت الينا الاخبار متناقضة في ذلك المعنى : فقيل ان المسلمين لم ينضموا الى حزب المعارضة ، وقيل انهم اخيراً اتفقوا على توحيد الكلمة والعمل مع الغير المسلمين . واكثرية الهنود الساحقة انما هي من الغير المسلمين ، ومنهم غاندي . ولم تعرف نيات غاندي الحقيقية نحو مواطنيه المسلمين . على ان مجلة « العالم الاسلامي » الانكليزية نشرت (ابريل ص ١٦٤) فصلا موقعاً باسم بريغس (F. S. Briggs) تحت العنوان الذي اشرنا اليه ، ذكرت فيه قصة غريبة واقعية جرت على الحدود بين الهند وافغانستان ، عرضناها لقراء « المشرق » مناسبة لحوادث الهند الاخيرة .

في اوائل سنة ١٩٢٠ قامت «لجنة الخلافة» ، وغاندي هو احد مناصريها ، تحث المسلمين على خذل حكومة الهند « الجهنمية » التي تبسط طاعتها عليهم خلافاً لتعليم القرآن ، وعلى استيطان بلاد يكون حاكمها اميراً مسلماً كبلاد الافغان . فلماذا تدخل غاندي في القضية وما كانت اغراضه منها ؟ هذا امر لم تكشف غوامضه بعد . وقد رأى بعض الذين رجعوا عائدين الى الهند من هجرتهم أن غاية غاندي كانت ابعاد مسلمي الهند ، على قدر المستطاع . وقد يكون الحادث قصة خيالية لولا وقوع « الهجرة » حقيقةً وموافقة غاندي للقائمين بها .

انبث دعاة الهجرة بين مسلمي الهند يحثونهم على المنفى الاختياري ، ويحذثونهم عن بلاد الافغان الفاتحة ذراعيها لاستقبالهم ، وعن وعد اميرها ، المتربع على العرش بعد الحرب الافغانية الثالثة ، انه يقطعهم الاراضي الواسعة المخصبة ، وعن مساعدة الاهلين الذين سوف يمدونهم بالزاد على طول الطريق من الحدود الى كابل . أحقيقةً كان وعد الامير او وهماً ؟ لا ادري ! ولا ادري هل بلغه خبر الحملة الشديدة . اما الشعب فمن المؤكد انه لم يعد بالزاد

الجماهير الآتية من الهند . وهب انه وعد ، فلم يكن بوسعه ان يبرّ بوعده .

واقبل الناس على الهجرة ، تلبية للدعوة . أتوا من انحاء البلاد وخاصة من السند ، ومن حدود الايالة الشمالية الغربية . فجمعوا جموعهم رجالاً ونساء في بشاور وشدوا المطايا الى كابل . فغصت القطارات بالجماهير المسافرة الى بشاور ، القاصدة الى العاصمة الافغانية . وتزاحم سكان الارياف على رصائف المحطات ليزوّدوا المهاجرين . وطارت لفظة الهجرة من فم الى فم فاستطارت لها الالباب وكثر عدد المهاجرين حتى بلغ مليونين ومئة الف على ما قيل . وان في القول لمغالاة ، لكنه ليس بعيداً جداً عن الامر الواقع .

وكان المهاجرون من المدن قليلين ، نسبةً لاهل الارياف ، حيث تحرّكت للهجرة اسرٌ برمتها ، وضيع بكفتها . فشى من مشى وركب من ركب من عجز ومرضى ، وتحركت العجلات وراء الثيران وعلى جانبيها نساء سائرات مرضعات اطفالاً لم يتجاوز عمرهم بضعة ايام . واستحسن بعض مشايخ القرى حركة الهجرة ، اذ سُئل عنها احدهم فقال : « يا صاحبي ! ذلك احسن ما حدث لنا من زمان طويل : لقد ذهبت الهجرة بعناصر الاضطراب كلها . » انقضى اسبوعٌ على المهاجرين وهم في رحيل ، وظل قافلاتهم يتقلّص او يمتدّ تجاه بيت كاتب هذه الاسطر .

ولكل فريق منهم عازف يعزف وينشط السير . وقد مرت احدى فرقهم الكبرى خارجة من بلاد الهند البريطانية ، وفي مقدمتها مزمرٌ يزمر على لحن الحرس البريطاني !

وكان سلوك المهاجرين حسناً محموداً الى حدّ بشاور . سافر واياهم « محرر هذه الاسطر » في قطار ملاوه وتزاحموا على ركّاباته وعلى اسطحته ، ولم يأخذ عليهم اشارةً مخلة بآداب المعاشرة . ثم دخلوا بشاور فاستنشقوا ريح الفوضى ، وما خرجوا منها حتى انقلبوا يقذفون بشتائمهم كل اوربي لاقوه . واتفق ، اثناء سافر « المحرر » ، الى ممر « خيبر » ، والى « لاندى كانتال » ، حيث اتجه المهاجرون ، فلم يجد فرقة واحدة منهم احجمت عن شتمه ورجم مركبته .

ولكن شتان بين رحلة ورحلة . كان السير الى بشاور اشبه بالسير في

نزهة ، فامسى من بعدها اشبه « بدرب الصليب » ، وكان في آخر المتقهقرين اولئك الذين كانوا اشد تحمساً في دفع غيرهم الى الهجرة . لم يكن معهم زاد وما كان ليخطر على بالهم فكر الزاد ، وهم يتوغلون في بلاد مقفرة ، والحرّ في اواخر ايار ومستهلّ حزيران قد بلغ اشدّه ، ولا ماء ولا طعام كافٍ لتلك الجماهير ، واشعة الشمس تنعكس على الصخور الجرداء متلظية في الفضاء كانها اللهيب . وجدوا قليلاً من الماء في « يرود » ثم ساروا عشرة اميال ، ووجدوا بالقرب من « مسجد علي » غديراً لم ينضب ماؤه تماماً . وكان معهم من الطعام ما ساعدهم على الوصول الى « خيبر » بنشاط . ولكن ما لبثوا ان جاعوا وعطشوا ، ولم يجتازوا مقاطعة النفوذ البريطاني في « لاندى كتال » الا والعوز والحرّ قد وسما فيهم الذبائح للمرض والموت . وتفاقم الامر بخروج القبائل عليهم فسلبوا ثيابهم وما كانوا يملكونه من دريهمات ادّخروها من بيع ممتلكاتهم ، وأقفروا ذلاً وعاراً . وحاول ثلاثة منهم مقاومة اللصوص ، فغلبوا على امرهم ، وكووا في ظهورهم بالحديد المحمى في النار . فرأى الكثيرون منهم ان الحكم البريطاني ما كان ليبلغ ذلك الحدّ من التنكيل ، فعرجوا على اعقابهم تائبين . وحدث ان الثلاثة المكويين على ظهورهم قصّوا قصتهم على من لاقوهم في طريقهم . فكان وقع كلامهم على فرق المهاجرين كوقع اشعة الشمس على كومات الثلوج ، لانه بدّد الجموع وردّ المهاجرين على وجوههم فعادوا ، وقد انقلبت سحنتهم وتغيرت مظاهرهم . وظلّ بعضهم مصرّين على عزمهم فبلغوا كابل ، واذ الاراضي المخصبة الموعود بها انما هي «آل بلقعة وبرق خلب» . طرقوا باب الامير فاجابهم ان بين يديه بعض الاراضي البور ، فان شاؤا استعمارها فلا بأس ، ولكن ليس من غيرها . فقضوا الرجوع الى الهند ، ولم يبقَ في كابل الا بعض السذج الراضين بالعيش الشظف . ف . ت .

حول نشأة المقامات

ذكر الحريري في مقدمة مقاماته (طبعة بيروت ، ص: ١٢) انه تلا فيما تلا بديع الزمان الذي « ابتدع » هذا الفنّ . فاراد الدكتور زكي مبارك « إصلاح هذا الخطأ الذي مرّت عليه قرون » فكتب مقالاً واسعاً في « مقتطف » مارس وأبريل ينكر فيه على الحريري قوله

المتقدم ، وينسب الصفدي الى احتذاء ابن دريد في مقاماته . اما ان جهم الاستاذ زكي مبارك باصلاح الخطأ في نشأة المقامات - ان كان هنالك خطأ - فما يشكره له كل اديب . واما ان ينسب مصدر هذا الفنّ الى احاديث ابن دريد ، وكلنا يعرف ان هذه الاحاديث بعيدة عن فنّ المقامات ، فهو ما لم يتوفق اليه . فضلاً عن انه لا حاجة الى اتمام ابن دريد بابداع المقامات ، ونحن نرى لها مصدراً اقرب الى العقل في رسائل ابن فارس اللغوي المعروف المتوفى في الريّ سنة ١٠٠٥ ، والذي كان استاذ بديع الزمان . ولا عجب ان يكون التلميذ اقتبس عن استاذه هذا النسق ، ونفخ فيه من روحه ما سما به الى المقام الرفيع . وابن فارس اقرب الى البديع من ابن دريد ، ورسائله الموضوعة اقرب الى المقامات من تلك الاحاديث المروية بالاسناد .

هذا وقد ردّ الاستاذ مصطفى صادق الرافعي على الاستاذ زكي مبارك ، في « مقتطف » ابريل ردًّا شديد اللهجة اشار فيه الى وجوب درس النصّ الذي استند اليه الاستاذ مبارك . وهو كلام لصاحب زهر الآداب يصرّح فيه باحتذاء البديع لابن دريد . قال الاستاذ الرافعي (ص ٥٨٦) :

ان البحث يجب ان يكون في الاصل الذي نقل عنه صاحب زهر الآداب اذ لم يذكر هذا الخبر احد غيره وقد كان في آخر عهد بديع الزمان وكان ينقل في كتابه من الكتب وهو من القيروان وليست له رواية ولم يرحل الى العراق . فمن اين وقع له ذلك الخبر ؟ وهو لو كان صحيحاً لذكره الثعالبي في اليتيمة او في غيره من كتبه ولاستفاض في كلّ كتب التراجم .

ولم يذكر احد في اخبار ابن دريد ان له مقامات او احاديث وكتبه محصورة معروفة وقد ولد البديع بعد وفاته بنحو ثلاثين سنة ولا تكون المعارضة عادة الا للمشهور المتداول .

والاحاديث الموضوعة على الاعراب كثيرة لم ينفرد بها ابن دريد وأشهر وضّاعها ابن الكلبي ، وابن دريد ينتهي اليه في اكثر ما يرويه .

والذي يظهر لنا ان صاحب زهر الآداب سمع الخبر من بعض من رحلوا الى العراق ونقلوا عن علمائه دسّه هذا كأنه ممّا انفرد بعلمه فرواه ذاك بدون تحقيق . وهذا كان شائعاً في الاندلس والمغرب فكل من رحل الى العراق طلبوا عنده ما ليس عند غيره فان كان في عقيدته وهن أنفق من كيس لا ينتهي ما فيه ... وقد اشرنا الى ذلك في باب الرواية من تاريخ آداب العرب .

وكيف يعارض البديع اربعين حديثاً باربعمائة مقامة شرقت وغربت ثم

لا يستفيض ذكر هذه المعارضة في كتب المشرق ولا تراه منقولاً الا عن رجل من اهل القيروان لا رحلة له ولا سند ولا رواية وانما يستطرف من كل كتاب ومن كل خبر ؟

وقد نقل الشريشي ان البديع كان يقول لاصحابه في آخر مجلسه اقترحوا غرضاً نبني عليه مقامة فيقترحون ما شاؤا فيملي عليهم المقامة ارتجالاً في الغرض الذي اقترحوه . قال: وفيها مقامات لا تبلغ عشرة أسطار . قلنا وهذا هو السبب في انه لم يتهيأ الينا من المقامات الا ثمنها فيكون الباقي مما اهملوه اذ كان اشبه بالعبث من القول ولا يجري الا مجرى النادرة والحديث دون الصنعة والكتابة .

ثم يقول الاستاذ مبارك ان الدكتور طه حسين قال له ارجع الى كتاب الامالي وانظر الاحاديث التي نقلها عن الاعراب فان رأيته يروي عن ابن دريد فاعلم اذن !!! ان الاربعين حديثاً التي ذكر صاحب زهر الآداب انه اخترعها لم تكن شيئاً آخر غير هذه القصص التي حلى !!! بها القالي كتابه . قال فلما رجعت الى كتاب القالي وجدت حقاً !!! ان القصص التي احتواها مروية عن ابن دريد الخ .

اذا كان ابن دريد شيخ القالي وكانت رواية القالي عنه فهل يكون كل ما يرويه عنه الا مسنداً اليه . وهل نسيت ان الرواية علم دقيق له آداب وشروط . وان صاحب زهر الآداب يقول في احاديث ابن دريد أنه استنبطها من ينابيع صدره يعني أنها فهي من رضمه وليست من روايته وانه اذا كان كذلك لم يبق وجه لان يدخلها القالي في كتابه ويلبس بها على الناس ويزعمها مروية بالسند عن ابن دريد الى الاصمعي أو ابن الكلبي . ولو فعل لكان كذاباً وبطلت الثقة به وبكتابه .

هذا مضحك واذا جاز ان يقوله من لا يعرف شروط الرواية فلا يجوز ان يقع فيه من يروي بشروطها وآدابها كالقالي . وانت ترى القالي في اماليه يروي من شعر ابن دريد وينسبه اليه فما الذي يمنعه ان يفعل مثل ذلك في احاديثه التي الفها « من ينابيع صدره ومعادن فكره » ؟